

أخوك أم الذئب ... ؟

الأستاذ محمود محمد شاكر



أجل ! ! هذا هو العالم المفرور الذي ظن خير لظن بغيره ،
وأثنى عليها ثناء الأم على عذرائها ، ونفض عليها من نحاسين الخيال
فتوناً كذناً نأبى الطاووس ، وأدار عليها مجامير اللندل والندل والمواد
من عطر الشهوات واللذات ، وأحاطها بالعقيرة الطيبة التي توجد
في كل شيء شيئاً جديداً يدخل على العقل إبليساً صغيراً ليُضِلَّ
عن سبيل الحق ، ويضع في الثمرة حلاوة تلذ ونشوة تصكر ، ثم زاد
فأعطى المادة المتبدلة الغانية تدليساً يجعلها في فتنة الرأي نابعة خالدة
ثم غلا فجعل للنفس تطلق أهواءها جميعاً لتحز من قنات الحياة
كفائتها ، إن كان لأهواء النفس كفاية

هذا العالم المفرور يقف اليوم في فتنة القتال في سبيل
الأهواء الغالبة والشهوات المستحكة . وفي هذا القتال تتكشف
لنا أبعاد حقيقة هذه المدنية ، وحقيقة أغراضها التي عملت لها
وعملت إليها ، وحقيقة الروح التي يتعامل بها الاجتماع الإنساني
التي تعيش به هذه المدنية الأوربية التي تنكر من الحياة وتعرف
وتدعي لنفسها إسقاط ما أنكرت وإقرار ما عرفت

وفي كل يوم تتجدد أحداث الحرب ، فتتجدد معها أساليب
الفرار والوحشية المصبوغة رحتها بأصبغ الاقتراس ، وفي كل يوم
يخلع الوحش عن غيابه ذلك الخجل للنام الذي دسها فيه ، ويهجم
بطائمه على فريسته ليمكن بذلك أنه هو الوحش : قانونه المنفعة ،
وشرفه المنفعة ، وصدقاته المنفعة ، وأدبه المنفعة ، ودينه المنفعة .
فهو لا يتفك من منغمته في مثل السمار إذا أخذ الوحش فاستكاب
فهاج قطاني ، لا يهدأ حتى يطغى هذا السمار ما يشفيه أو يردده
أو يقده ، وهو لا يرمي في ذلك حرمة ، ولا يكفه شرف :

وكان كذب السوء للارأى دماً بصاحبه يوماً أحل على المم
وقبيح بنا - نحن الشرقيين - أن نمنع أعياننا عن النظر
إلى هذه المدنية التي أخذت تنهار تحت قصف المدافع وهذا القتال
وزلازل الحرب ، وأن ننام عن مستقبل أيامنا ، وألا ننفض
هذه المدنية نفصاً لتأخذ منها وندم ، ولنترف سوء ما تركت

أنيابها في جسم أوطاننا ، وتدين حقيقة النفوس المسمومة التي
أصبحت في الشرق فاشية تعمل على إدماجه في حضارة غربية
عنه ، لا يطبقها إلا على نكد ولا يحتملها إلا عتقا وإرهاقا وغرورا
إن رؤوساً من الناس في هذا الشرق قد طالت بهم أيامهم
حين أقبلت عليهم الدنيا ، فأخذوا على الرأي العام منافذه كلها ،
وصرفوه ما شاءوا بما شاءوا كما شاءوا ، لم يطلب عليهم إلا ذلك
الداء الويل الذي قبضه من مدينة الغرب ، داء النفقة . طلبوا
المنافع لأنفسهم ، فاستبدوا في غير ورج ، وتجبروا في غير تقوى ،
وعملوا على أن يكون سلطانهم في الأرض كسلطان الله في السماء :
يمحو ما يشاء ويثبت ، علواً في الأرض واستكباراً ، فأنزلهم الله
أنى يؤفكون ؟

إن الشرق لا يؤتى ولا يطلب إلا من قبل أهله . هذه هي
القاعدة الأولى في السياسة الاستعمارية الماضية ، فملت هذه
السياسة على أن تنشر في الشرق عقولاً قد انسلخت من شرفيتها
وانقلبت خلقاً آخر ، وقلوباً انبثت من علائقها ولصقت بعلائق
آخر ، وبهذه العقول المرتدة والقلوب المرتكسة استطاع الاستعمار
أن يعد للشرق طريقاً محفوقاً بالكذب والضلال والفسوق ،
يختمه عن الصراط السوي الذي يفضي به إلى ينبوع القوة
التي يتطهر به من شرور الماضي وأباطيل الحاضر ، فيمتلك من
سلطان روحه ما يستطيع به أن يهدم الأسداد التي ضربت عليه ،
ويجتاز الخنادق التي خسفت حوله

لقد لقينا هؤلاء العنت حين استحكم لهم أمر الناس فتسلطوا
عليهم بالرأى وأسبابه ، غفلوا بسوء آرائهم على الشرق ليلاً من
الاختلاف لا يبصر فيه ذو عينين إلا سواداً يمتدح إذ يستبين .
وكانوا له قادة فاعتصموا به كل مضلة مهلكة تحمل من قلب المؤمن
إيمانه ، وتزيد ذا الرية موجاً على موجه . فلما كتب الله أن يدفع
مكر هؤلاء بقوم جردوا أنفسهم للحق ، رأوا أن يلبسوا للناس
لباساً من اللفاق يترقون به إلى التلبس عليهم بما حذقوا من
الداورة ، وما دربوا عليه من فن الرأي ، وما أحسنوا من حيلة
الحتال بالقول الذي يفضي من لينه إلى قرارة القلوب ، حتى
إذا استوى فيها لفها لف الإصهار ، واحتوشها من أرجائها ،
ثم انتفض فيها انتفاض الضربة على هبة الريح في هشيم يابس .

وأخوف ما نخافه هو ما أوتى هؤلاء من الرفق واللين وحسن
الجمالة ، وأنهم قد أحكموا معرفة الأسباب التي بها يأخذون
بأیدی الناس وعقولهم ، وأنهم قد أوتوا نصيباً من الصيت يتنل
بهم على ما يعترضهم أو يردهم ، وأن للناس أسرع اتباعاً لما ألفوا
وحنيناً إليه ، وأن البلبلة التي تأتي مع الحروب وتعد في أذيلها ،
تدح الناس حيرى غرق يتلمسون في كل شيء شيئاً يتعلقون به ،
فإذا لم نأخذ من الآن في جد من الأمر ، ولم نصرف جهودنا
إلى اختيار الأصلح في كل شيء ، فإبد من أن تنجلي العيائ
بمد عن الدنيا لتطبق علينا عمامة مصفقة كالظلام المصمت . وبومئذ
ترتد على أعقابنا حسرى عتاة كأصوأ ما صرنا من زمن ، وتضيع
للفرصة السانحة ونحن غرق في بحر طام قد ترح عنا شاطئه
بعد الدنو

فعلينا الآن أن نتق بأنفسنا غاية الثقة ، لأن الثقة بالنفس
هي جيش الحرية ، وأن نشك كل الشك في أصحاب الرأي ومن
يهرسون للإمارة عليه ، لأن الشك في هؤلاء هو حارس الحرية ،
وأن نشهد في مطاردة الضلال والصيت ، لأن هذه الشدة هي سلاح
الحق وسلاح الحرية . فإذا غلب علينا التهاون في شيء من ذلك ،
فإنها ثرة تندفق منها على الشرق مرة أخرى ضلالات وفتن
كقطع الليل المظلم ، ويمجز أهله عن حل أعباء الحضارة الجديدة
التي اختارهم الله مرة أخرى للعمل عليها والقيام بها . فإبد من
أن ينفض الشرق بعينه ورأيه كل بارقة وكل غمام ، غافة
أن تنزل للصواعق عليه من حيث ظن للنفي

ليس في الشرق قوى تضارع تلك القوى الهائلة التي صبت
من الحديد والنار وأسرار الكون ، وليس فيه ذلك النفي غنى
الاستبداد والجبروت والسياسة ، وليس فيه ذلك الجمهور العظيم
من العقل للعامل لايجاد القوة في كل شيء لاستخلاص المنافع
من كل شيء ، ولكن هذا الشرق لا يزال يحتفظ بأعظم قوة
تخضع كل هذه الأشياء لسلطانها التي ينال النصر ما تعاون ولم
يتفرق . وتلك هي قوة الروح ، وقوة الخلق ، وقوة الاستمرار
إلى النهاية مصابة لا ذلاً ، وإيماناً لا متاداً ، وتحلياً لا غفلة .
فعلينا أن نعرف فضائلنا التي توارثناها ، وأن نتق فيها ما خالطها
من خبث الجهالات القديمة التي تراكت عليه فقصت به أزماناً

وقد أقبلت اليوم على الشرق أيامٌ تتظاهر فيها الأقدار على
أن تسلم إليه قيادة مدنيته الجديدة بمد طول الابتلاء وجفاء
الحرمان ، وجاءت مع هذه الأيام فتنٌ يخشى أن تضرب أو تله
بآخره حتى لا يقوم شيء هو قائمٌ ، ولا يبقى من أعلام الماضي
إلا آثار التاريخ التي تقف شواهد على ماضى وآيات لا يستقبل .
فإذا كان ذلك ، فإن الحكمة والحزم والجند أن تميز الحبيث من
الطيب ، وأن تختار لا نفساً قبل البدء ، وأن يلى منا أمر القيادة
من هو حق صاحبها والقائم عليها والمحسن لتصرفها وتديرها
وسياستها ، وإلا انفلتت من أيدينا حبال الجمهور التحفز ، فانتشر
على وجوهه وتفرق ، وكان ما كان لم يكن ، وكان الفرصة قد
عرضت لنا لتدع في قلوبنا بمد ذلك حسرة لا تزال تلذع بالذكرى .

إن أكثر هؤلاء الذين وصفنا قد وجدناهم يعدون أهناتهم
يتناولون مرة أخرى للوقوف في مقدمة الطلائع الشرقية ،
ورأوا — من أجل ذلك — أن يعاسخوا الرأي العام على بعض
أهوائهم وعلى طائفة من أغراضه ، ليستمر لهم ذلك المكان الذي
حازوه من قبل ، وليكونوا في الشرق الجديد ما كانوا في أيامه
السابقة . فهم يعدون له ما لا يستقدون عليه نياتهم ، ويحدثونه
حديث من طب لمن حب ، وهم كانوا قبل أمانوا عليه ، إذ أفسدوا
سالح أعمالهم بالآثم من أعمالهم وآرائهم ، وهم كانوا عليه حرباً ،
إذ زرعوا من يديه سلاح القتال في سبيل حريته واستقلاله
وانفراد به بخصائسه التي ورثها وخص بها ، وهم للجيل بمد
الجيل في تنقيتها له تنقية المدرة من بين الحب

ليس اليوم أو ان يترك الشرق عنانه في الأيدي التي لمبت به
وغررت ، ولا هو يوم التهاون في القليل لأنه قليل ، ولا هو
يوم إحسان الظن بمن يحتمل للظفر بحسن الظن ، ولكنه اليوم
الذي يتفلت فيه من كل ضلالة وعبث ، ومن كل صرافقة للنفع
متشرف للمصلحة ، ومن كل سبب من أسباب التدمير . فإذا
فعل ذلك ، وأعطى كل ذي حق حقه ، وامتاز المجرمون ، وخلص
له المخلصون واستعان بحرية اختياره على إقرار الناس في مواضعهم
وعلى صرائبهم ، فيومئذ يجد للقدرة على انتزاع حريته من أياب
الفاصين ، ويصيب سهاد الطريق إلى الناية التي ينظر إليها بآماله
وأشواقه نظرة للعامل لا نظرة للحالم المتخيل